الياس خوري

فوزي الأسمر: بين منفيين

في المقالة التي نشرها آري شافيط بعنوان: "اللد ١٩٤٨، مدينة ومجزرة والشرق الأوسط اليوم" ("النيويوركر"، ٢١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٣)، يأخذنا الصحافي الإسرائيلي في رحلة شاقة إلى الذاكرة الإسرائيلية عن المجزرة التي تعرضت لها اللد في سنة ١٩٤٨. يستند الكاتب إلى مصدرين: بعض الوثائق الإسرائيلية التي نشرها المؤرخ الإسرائيلي بني موريس، وشهادتين شفهيتين تضمنتا ذاكرات ضابطين إسرائيليين كانا مسؤولين مباشرين عن المجزرة: شماريا غوتمان حاكم اللد العسكري لحظة احتلالها، وشموئيل (مولا) كوهين، القائد العسكري الميداني الذي احتل المدينة. فضلاً عن شهادة ناجٍ فلسطيني هو عثمان أبو حامد وكان والده صديقاً لمؤسس مستعمرة بن شيمين. وقد أقام الكاتب موازاة لا تخلو من التحايل بين تعاليم سيغفريد ليهمان، الصهيوني "الإنسانوي" الذي أسس مستعمرة قرية الشباب في بن شيمين، التي كانت مخصصة لليتامى اليهود، وبين مذبحة اللد.

كان ليهمان مبشراً بالتعايش بين

الشعبين، ورفض عزل المستعمرة عن محيطها، بل إنه ذهب مع تلاميذه إلى مدينة اللد من أجل مساعدة أهلها عندما ضربها الزلزال في سنة ١٩٢٧.

أمّا كيف تحول بعض تلامذة مدرسة بن شيمين إلى المنفّذين المباشرين للمذبحة في اللد، فتلك حكاية لم تجد بعد مَن يرويها.

استوقفتني هذه المقالة بشكل خاص لأنها تتابع نهجاً ثقافياً إسرائيلياً يقوم بحجب الصوت الفلسطيني. وإذا كان بعض المؤرخين يتذرع بالموضوعية والعلمية، كي يرفض الشهادات الشفهية، فإن هذه الحجة انتفت في المقالة لأن كاتبها يلجأ إلى شهادتين شفهيتين إسرائيليتين، وواحدة لفلسطيني طُرد من المدينة. لكنه يتجاهل ثلاث شهادات فلسطينية، الأولى سيرة فوزي الأسمر ـ الصحافي والكاتب الذي عاش مأساة اللد في حي المحطة، والتي صدرت بالإنجليزية والعبرية ـ والثانية بالإنجليزية لرجائي بصيلة ـ الشاعر والكاتب الفلسطيني الكفيف الذي نشر في *Journal of Arabs Studies Quarterly*, vol. 3, no. 2 (Spring 1981) شهادة نادرة لقافلة الموت، وحكاية الطرد الوحشي من المدينة خلال المذبحة وبعيدها. أمّا الشهادة الثالثة فكُتبت بالعربية بقلم إسبر منيّر في كتاب: "اللد في عهدَي الانتداب والاحتلال" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٧).

الصوت الفلسطيني لا يزال محجوباً، بشكل متعمد، كأن المسألة في فلسطين ليست سوى حوار أخلاقي صهيوني داخلي، كما يوحي مَن يدّعي أن الصراع هو بين حقّين، فتصبح الجرائم التي ارتُكبت في سنة ١٩٤٨ مكان حوار أخلاقي إسرائيلي بين الضرورة والقيم، ويتم تناسي جريمة ارتُكبت بحق الضحية الفلسطينية التي تملك سرديتها الخاصة، ويحق لها أن تطالب بالعدالة.

المصادفة التي جعلت مقالة آري شافيط تُنشر في السنة نفسها التي توفي فيها فوزي الأسمر (٢٠١٣) تشير إلى عمق الهوة التي رسمتها الأيديولوجيا الصهيونية بين الحقيقة والتأويل. فالذي يستولي على التأويل يستطيع أن يدّعي حقاً يمتلكه بالقوة. لذا لم يتنبه الصحافي الإسرائيلي إلى كتاب زميل له، يحمل الجنسية الإسرائيلية، وعاش في اللد وشهد المأساة وكتبها في سياق مذكراته عن تجربته الإسرائيلية، في كتاب حمل عنوان "أن تكون عربياً في إسرائيل" (*To be an Arab in Israel*)

لم يكن فوزي الأسمر شاعراً، مثلما أوحى من خلال ديوانَيه: "أرض الميعاد" (عكا: دار الجليل للطباعة والنشر، ١٩٦٩) و"دامونيات" (الناصرة: مطبعة وأوفست الحكيم، ١٩٧١). وإنما صار كاتباً وصحافياً فلسطينياً نشر بالعربية والعبرية والإنجليزية، وانتهى به المطاف، تحت ضغط القمع الإسرائيلي، إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة.

في سيرته صار فوزي الأسمر شاهداً، والمسافة بين الشاهد والشاعر صغيرة إلى درجة توحي بإمكان عبورها من دون مشقّة. ربما كان الأسمر ضحية عمله إلى جانب شاعر من قامة راشد حسين، أو ربما كان الانفجار الشعري الذي حدث في فلسطين المحتلة، معلناً استعادة الهوية بالكلمات، حافزه إلى العبور إلى الشعر الذي سرعان ما تخلّى عنه، كي ينصرف إلى العمل في الصحافة والنشر، مقدماً كتاباً نادراً عن معاناة الفلسطينيين في الدولة العبرية التي تأسست على أنقاضهم.

فوزي الأسمر الذي كتب الشعر والنثر والمقالات بالعربية والإنجليزية والعبرية، ترك لنا كتاباً يشكّل مدخلاً لقراءة النكبة كتجربة معيشة من داخل الكيان الإسرائيلي.

تجربة الأسمر تشبه تجربة راشد حسين في كونها جاءت من المدى الثقافي الموازي لتراث الحزب الشيوعي الثقافي في "الاتحاد" و"الجديد"، وهي تجربة ملأى بالالتباسات، والمعاناة، وبدأت مع صحافة حزب "المابام"، وتبلورت في حركة "الأرض"، واتخذت

مسارها الأخير في منظمة "ماتسبن". كانت تجربة مريرة على المستويات كافة، لأنها حكاية بداية لم تستطع أن تبدأ، فانتهت بأبطالها جميعاً إلى السجون والمنافي: حبيب قهوجي؛ صبري جريس؛ راشد حسين وآخرين.

لكنها تجربة تركت بصماتها في الوعي الفلسطيني داخل الخط الأخضر، وقدّمت مجموعة من الإنجازات كان أبرزها أعمال راشد حسين الشعرية، وكتاب صبري جريس: "العرب في إسرائيل"، وكتاب / مذكرات فوزي الأسمر: "أن تكون عربياً في إسرائيل" (*To be an Arab in Israel*) الذي صدر في طبعتين: الأولى في لندن عن Francis Printer، في سنة ١٩٧٥، مع مدخل بقلم الصحافي اليهودي الأميركي أَيْ. اف. ستون، ومقدمة للكاتب الإسرائيلي يوري دايفيز، والثانية في بيروت في سنة ١٩٧٨ عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي قامت بالاستغناء عن المدخل والتقديم. كما صدرت ترجمته العربية عن دار المعارف في مصر (من دون تاريخ) موقّعة من نظمي لوقا وصوفي عبدالله، وهي ترجمة لا تخلو من كثير من الشوائب، وكان الكتاب قد صدر بالعبرية في سنة ١٩٧٥ (القدس: منشورات إسرائيل شاحاك).

بداية تشبه النهاية

يبدأ هذا الكتاب من الاحتلال. ذات يوم في أواسط تموز / يوليو، عاش الفتى الذي كان في نحو العاشرة من العمر صدمة الوعي: "كنّا نلهو في ملعب كرة القدم، عندما رأيت جموعاً من الناس تجري هاربة من اللد، فأفزعني ما ارتسم على وجوههم من الرعب، فركضت نحو البيت... وأبصرت أناساً كثيرين لم أرهم من قبل وقد احتشدوا في فناء دارنا، وسمعتهم يقولون إن اليهود استولوا على اللد، وإن القتلى في البلدة كثيرون."[١]

وفي ملعب كرة القدم نفسه سيأمر الإسرائيليون سكان حي المحطة (حيث كانت تقيم عائلة فوزي الأسمر)، بالتجمع، ثم تم تقسيم الناس إلى مجموعتين: "العاملون في السكة الحديدية في جانب، وباقي السكان في جانب آخر."[٢] قام الإسرئيليون بعد ذلك باعتقال كل رجل كان عمره بين السادسة عشرة والخامسة والأربعين، ولم يكن هو أو والده يعمل في السكة الحديدية، وأعلنوا أن على جميع غير العاملين في السكة الحديدية مغادرة المدينة.

ولأن والد الأسمر كان يعمل في المحطة، فقد كان الفتى من القلة الناجية التي سُمح لها بالبقاء في بيوتها، وقُدّر لها أن تعيش تجربة الاحتلال، في مدينة فرغت من سكانها الذين كان عليهم أن يمشوا في قافلة الموت التي سيرسمها إسماعيل شمّوط محولاً إياها إلى أيقونة بصرية للنكبة.

بدأت حياة الأسمر عبر ارتطام حضوره الجسدي في مدينته بغيابه الرمزي عنها. يروي الكاتب حكايات لا تكاد تصدَّق، من اعتقاله بتهمة السرقة لأنه كان يقطف التين من حقل تملكه عائلته، إلى قيامه ونفر من أترابه بتزوير أذون الخروج من الحي العربي الذي تحوّل إلى ما يشبه المعتقل الجماعي، من أجل الذهاب إلى سوق المدينة وشراء بعض الحاجات منه.

لن نعثر في الكتاب على التفاصيل الرهيبة لمذبحة اللد، لأن حي المحطة كان بعيداً عن المدينة، لكننا سنعثر على الفلسطيني الذي تحوّل ظلاً لنفسه، وصارت أرضه، من دون أن يدري، في عداد أملاك الغائبين، وكان عليه أن يعيش في مدينة أشباح أقام من تبقّى من سكانها في حيين:

حي المحطة للعاملين في السكة الحديدية، وحي السكنة المسيّج بالأسلاك الشائكة للعاملين في المستشفى ومَن بقي في الجامع والكنيسة.

يروي الأسمر اكتشافه لحي السكنة من خلال أول زيارة بالقطار نظمها الإسرائيليون للمسيحيين في حي المحطة، لكنيسة مار جرجس: "وأخيراً وصلنا إلى الحي القديم حيث يقوم المسجد والكنيسة معاً، فرأينا عدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وسوراً من الأسلاك الشائكة مضروباً حول الحي بأكمله، وداخل السور وقف رجال قلقون... رأيت أناساً بالشباشب وآخرين حفاة."[٣]

بدأ الفتى بالعمل مبكراً بسبب الحالة الاقتصادية الخانقة في المدينة: "حصلت للمرة الأولى على عمل عام ١٩٤٨، حين كنت في العاشرة، فقد جاء أحد الخواجات اليهود وأخذ الأطفال للعمل في جني الثمار في حقول العرب الذين غادروا اللد... وبدت لي الحقول، حيث البندورة والخيار والبازلاء والبطيخ، كبيرة ولا نهاية لها."[٤]

حكاية الأسمر ليست شهادة شخصية فقط، بل هي أيضاً مدخل إلى حكاية شعب من نقطة النهاية، أي من اندثاره وتمزقه وشتاته.

أين البداية؟

يتابع الراوي حكايته التي يمكن تلخيصها بأنها صراع من أجل البقاء. فبالنسبة إلى الفلسطينيين الذين بقوا في بلادهم، فإن حكايتهم تبدأ من هنا، البقاء هو مقاومة الإذلال اليومي عبر التمسك بالكرامة، وعبر التحايل على الاحتلال. اكتشف آل الأسمر لعبة التحايل عن طريق المصادفة، عندما صوّت الوالد والوالدة للمابام في انتخابات الكنيست الأول. ومع هذا التصويت الذي بدا نشازاً في ظل هيمنة أجهزة الأمن التابعة لحزب العمل، بدأت رحلة اضطهاد ومقاومة. الاضطهاد كان سافراً وواضحاً، فالديمقراطية الإسرائيلية تطبّق فقط في المجتمع اليهودي، أمّا الفلسطينيون فعليهم أن يصوّتوا كالأغنام. أمّا المقاومة فبدأت بالحيلة، إذ عندما تقرر طرد العائلة، لجأ الأب إلى أصدقائه في المابام ونجح في إلغاء أمر الطرد.

هذا التوتر بين المقاومة والحيلة سيرخي بظلاله على حياة الأسمر كلها، وفي النهاية عندما أعيته الحيلة، وجد نفسه في سجن الدامون بتهمة ملفقة هي الاتصال بالجبهة الشعبية و"فتح". وبعد عام ونصف عام من السجن الاحتياطي، وعام آخر من الإقامة الجبرية، رحل الرجل إلى المنفى الأميركي حيث عاش ومات.

كتاب الأسمر ليس وثيقة عن مذبحة اللد، التي هي أكبر مذبحة ارتُكبت في حرب النكبة، فالطفل الذي كانه في سنة ١٩٤٨، لم يكن قادراً على رصد تفاصيل ما جرى، إلاّ إنه شهادة عن علاقة الحيلة بالمقاومة، وعن قلق جيل النكبة الفلسطيني وهو يلملم شظايا وجوده من بين الركام.

بدأت حيلة فوزي الأسمر في كيبوتس وانتهت في كيبوتس. فبعد أن أنهى دروسه الابتدائية وجد طريقة للعمل عبر انضمامه إلى كيبوتس ناعان في سنة ١٩٥٤، وهناك كان عليه أن يغيّر اسمه ويصير موشيه كي لا يزعج ماركسيي حزب المابام، ويروي أنه كان ينتظر خلو الحمام العمومي ليأخذ دوشاً، وكي لا يكتشفوا أنه لم يكن مختوناً. أمّا النهاية فكانت عندما طلبت منه صديقة يهودية اسمها ساريت، انضمت إلى حركة ماتسبِن اليسارية، زيارتها في الكيبوتس

حيث تقيم، قبيل اندلاع حرب حزيران / يونيو. خلال اللقاء استُدعيت الفتاة إلى الخارج، وعندما عادت روت أنه "طُلب منها طرد العربي من الكيبوتس، وقالوا إنني إذا لم أغادر فإنهم سيقومون بطردي بالقوة."[٥]

وبين الكيبوتسَين حاول الشاب الفلسطيني أن يجد لنفسه موطئ قدم. انضم إلى هيئة تحرير مجلة "الفجر" الأدبية الشهرية التي كان يصدرها المابام، وعندما رفض الانضمام إلى الحزب فقد عمله. فعمل في شتّى المهن من العمل اليدوي إلى تأسيس دار نشر تجرأت على نشر كتاب جمال عبد الناصر "فلسفة الثورة"، وكتب أُخرى بينها كتاب جبران "دمعة وابتسامة" الذي مُنع، وكتب في صحيفة "هاعولام هازيه" مع أوري أفنيري...

وفي خضم البحث عن المعنى سيلتحق بحركة "الأرض"، ويكتب في جريدتها، ويشارك في النضال من أجل المساواة. وبعد حلّ الحركة واعتقال قادتها وإخراج بعضهم إلى المنافي، سينتهي به المطاف في جماعة "ماتسبن"، التي لن يكون مصيرها أفضل من مصير "الأرض".

الرجل والكتاب

كتب فوزي الأسمر كثيراً من الشعر إلى المقالات والدراسات، ونشر كتاباً رائداً في تحليل النظرة العنصرية الإسرائيلية في كتب الأطفال: *Through The Hebrew Looking Glass: Arab Stereotype In Children's Literature Books* (London: Zed, 1986), غير أن الكتاب الذي سيلتصق بفوزي الأسمر هو مذكرات نضاله بالحيلة والمقاومة في آن معاً. وبمقدار ما تكشف لنا السيرة جوانب غامضة من الحياة الفردية والجماعية، فإنها تحجب جوانب أُخرى. فالسيرة لا تستطيع تجاوز بنيتها كسيرة، ولذا يشعر مَن يقرأ هذا الكتاب بكثير من النقصان، وخصوصاً أن مأساة المدينة التي جاء منها الكاتب لا تزال في انتظار مَن يكشف خفاياها.

يروي هذا الكتاب حكاية الحيلة بأوجهها المتعددة، لكنه يركّز على الثقافة، وعلى لحظة ولادة الوعي الفلسطيني في المنفى الداخلي بالتشابك مع الثقافة الإسرائيلية. وهنا تبرز خيبات أمل متتالية، من خيبة العمل في صحافة المابام، إلى الخيبة من أوري أفنيري وجريدته "هعولام هازيه"، حين اجتاحت إسرائيل حمى ماسيانية جنونية بعد الانتصار الكبير في حرب حزيران / يونيو. حتى عاموس كينان، الذي كان أول مَن كشف، من موقعه كمجند في الجيش الإسرائيلي، وقائع تدمير قرى اللطرون الثلاثة: يالو وعمواس وبيت نوبا، يصاب بالذعر عندما تُنشر رسالته عن الجريمة، لأنه أراد لرسالته أن تكون ذات توزيع محدود لا يتجاوز بضعة مسؤولين إسرائيليين.

خيبة وصلت إلى ذروتها في السجن والإقامة الجبرية، وستقود راوي هذه السيرة وبطلها إلى المنفى الأميركي البعيد.

لم يكن فوزي الأسمر روائياً كجبرا إبراهيم جبرا، كي يجعل من سيرته نقطة انطلاق نحو بناء عالم "وليد مسعود" الرمزي، فالسيرة بالنسبة إليه كانت شهادة شخصية عن تجربة أن تكون عربياً فلسطينياً في إسرائيل.

ولعل السمة الأبرز لهذه الحكاية هي أن يجد الإنسان نفسه في المنفى من دون أن يغادر بلده. فجأة يصير المكان الأليف موحشاً، وتتحول دلالة الأشياء، فيصير الفلسطيني بلا وطن ولا اسم ولا عنوان، ويصير غريباً في أرض يحتلها الغرباء. ■

المصادر

١ Fawzi Asmar, *To be an Arab in Israel* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 2nd ed., 1978), p. 5.

٢ Ibid., p. 6.

٣ Ibid., pp. 8 – 9.

٤ Ibid., p. 13.

٥ Ibid., p. 126.

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(قضايا استراتيجية ـ ١)

المشروع النووي الإيراني

الرؤية الإسرائيلية لأبعاده وأشكال مواجهته

إشراف وتحرير

أحمد خليفة

٨٩ صفحة ٥ دولارات

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

في ضوء المتغيرات العربية والإقليمية

تحرير

جميل هلال

٢٠٦ صفحات ١٢ دولاراً